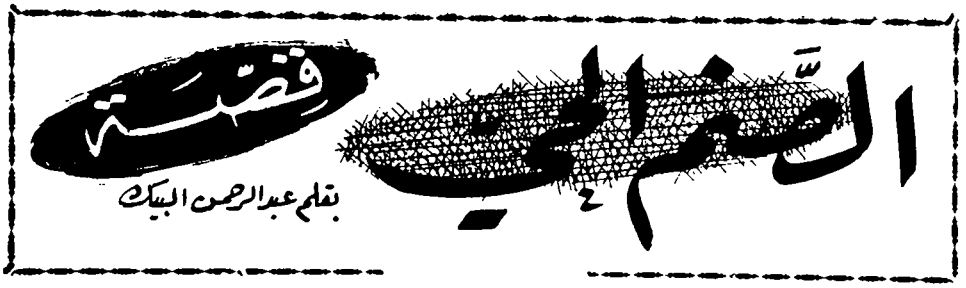

مهداة الى الصديق : علي بدور

في فجر احد الايام ، شاهد سكان المدينة مخلوقا عجيبا منتصبا في الساحة الكبرى وهو يبتسم . وكانت تبدو على وجهه سمات الرحمة وينبعث من عينيه بريق الشفقة والحب والاخلاص .

كان ذلك المخلوق عملاقا ، يشبه عفريتا من العفاريت انطلق من مكان كان فيه حبيسا ، وقد امتد رأسه فوق الابنية الضخمة ، وملأ جسده الساحة الكبرى ، وامتدت ساقاه بعيدا حتى تجاوزتا اعمدة الهاتف والكهرباء.

وسرعان ما انتشر الذعر بين السكان ، فطفقوا يهربون ويدبرون ، فهم لا يكادون يرفعون ابصارهم لمشاهدة وجه ذلك المخلوق حتى يرتدوا بأعينهم وهم يرتجفون فرقا . الا انهم سرعان ما طرحوا الخوف جانبا والتفوا حول ساقي العملاق ، حينما جذبتهم ابتساماته الرحيمة ومخايل وجهه الانسانية .

تبلغ الزعيم ، الذي كان يحكم المدينة بالجور والتعسف ، نبأ هذا المخلوق ، فارغى وازبد وجذع ان يتحالف هذا المخلوق مع الشعب ، فقرر ان يقف بنفسه على سر هذا الصنم الضخم ليبدأ بمجابهته ، وليبادر الى درء خطره .

فلما مضى اليه ، جزع من ضخامة جسمه ، وفزع من قوة ذراعيه المفتولتين وفسحة صدره الصلبة ، ولكنه ، ما لبث حتى اخفى خوفه هذا ثم راح يرمقه بنظرات صارمة يريد ان يؤثر فيه ويطبع في قلبه طابع الخوف والمهابة . ولكن الصنم قابل هذا التحدي بزمجرة غير مفهومة دوت على اثرها الارجاء ، فوقع الزعيم تحت ضغط الاهتزازات الصوتية وارتجفت القلوب ، وظن الناس ان عاصفة شديدة اخذت تصدع الجدران وتقتلع الجذور والاشجار .

ولكن بعد فترة سكن كل شيء . ونهض الزعيم من مكانه واخذ ينفض الغبار عن ثيابه ، ولكن نظرة حانت منه فشاهد الناس يحفون به وينظرون اليه في شماتة فما كان منه الا وانفجر صائحا : « انه صنيعكم ... اتظنون انني لا اعرف ذلك ايها الاغبياء .. انه عميلكم .. ان هذا لن يجديكم نفعا. انتظروا قليلا وستشاهدون ما سيحل بهذا الصنم».

ولما امسك عن زجر الناس ، انصرف الى الصنم فاخذ يتلمس جلده فيجده صلبا كالصخر ، ثم يفحص شعيرات قدميه فيجدها متينة كالخيال . ولما حار في تحليل هذا الامر امر نفسه بالانصراف فانصرف بواسطة سيارة مصفحة .

وجد الناس في تلك الفترة مزيدا من الفرص ، فقاموا يرقصون ويهللون فرحين حول ساقي العملاق . وكانت المدينة قد اغلقت متاجرها وحوانيتها حتى وكانها بدت في عطلة رسمية . وبدا الناس ينثالون من كل حدب وصوب الى الساحة الكبرى حتى اجتمع فيها عدد كبير .

وراحوا يقضون امتع الاوقات الى جانب ذلك الصنم الذي سحرهم بابتسامته الرقيقة ومخايله الانسانية العميقة التأثير .

اما في وزارة الدفاع ، فقد دعا الزعيم الى اجتماع طارىء . فتوافد الوزراء واخذوا يصنعون الى الخطط التي رسمها الزعيم في مخيلته للقضاء على هذا الصنم .

من اجل ذلك وجه الدعوة الى جميع علماء الكيمياء والفيزياء والفلك والكهرباء والطب والتشريح ، فلما اجتمعوا القى فيهم كلمة وطنية حماسية ، وحثهم على كشف سر هذا المخلوق العجيب ووعدهم بمكافات سريعة رفيعة .

واكب ذلك المبلغ من العلماء على البحث ، بعد ان اقاموا مخابرهم في الساحة الكبرى ونصبوا بجانبها الاجهزة الضخمة والمجاهر العظيمة. ولكن دراسة المخابر ونتائج المعادلات الجبرية والهندسية لم تؤت ثمارها كما هو في حال تطبيقها على الامور الطبيعية .

وغادر اهل العلم الساحة الكبرى خاسرين ، وعرف الزعيم مقدار الخسارة المعنوية التي لحقت بسمعته . ففكر ان افضل طريقة للسيطرة على هذا المخلوق انما يكون باستمالته ومفاضته عله ينجح فيما فشل به غيره .

اخذ الزعيم يخاطب الصنم بواسطة مكبرات الصوت فسأله قائلا :

ـ ايها المخلوق الغريب .. ايها الصنم الحي !! من اي بلد انت ؟

وهنا خرج الصنم عن صمته لاول مرة منذ حل في المدينة . وقال بصوت يشبه هزيم الرعد :

ـ انني ايها الزعيم المحترم من مدينتكم

فقال له الزعيم وهو يشعر بالزهو لهذا الانتصار الذي احرزه من جراء حمل الصنم على الكلام .

ـ حسنا ايها الصنم الحي ، ان كنت حقا من مدينتنا ، فالى اي حزب تنتمي ؟

وضحك الصنم العملاق ، فزمجر الفضاء ، وظن الناس الذين كانوا يستمعون الى هذه المحادثة ، بان عاصفة شديدة لا شك داهمتهم . ولكن الزعيم ما لبث ان اردف :

ـ ما الذي اضحكك ايها الصنم الحي .. اتسخر من نظام الاحزاب ؟

ـ انني اسخر من نظام يعترف بحرية الاحزاب ثم يضع نفسه فوق تلك الحرية .

وشعر الزعيم بارتباك شديد ، وقال للصنم بصوت خفيض يريد به الا يبلغ مسامع الناس :

ـ التزم الصمت ارجوك .. هل تريد فضيحتي ؟.

ـ بل اريد نشر الحقيقة .

ـ واية حقيقة هذه التي تزعم انها حقيقة ، الا تعلم انني اريد ان

استعمل الحيلة في حكم الرعية لاقدم الثمرة المرجوة لهؤلاء الناس الذين حاروا في فهم السلام واختلفوا في طريقة نشره على المجتمع ، انني اريد ان اظهر على الناس بطرق جديدة .

ـ هذا كذب وبهتان .. الا تدري بان الشعور في هذا العصر قد تيقظ على ان لاسلطان لاحد على احد .

ـ اذن فكيف يكون الحكم دون ان يتسم بفرض السلطة ؟

ـ يكون بالرشد والحلم وعدم الجور ، فاللين يذهب بالتعسف والرفق يزيل حب السيطرة ، وعدم الاستهتار باجماع الرعية على مبدأ يهون من نقمة العامة على الحاكم .

وسكت الزعيم قليلا ثم اردف في خبث :

ـ انني اعجبت جدا بآرائك ايها الصنم المقدس . ولقد حسبت في البدء انك مجرد صنم من الحجر .. صنعك اعدائي لمناواتي ، واذا بك صنم حي تتمثل فيك مشاعر مثالية .. فهلا قبلت عملا برتبة مستشار عندي ؟.

ـ مستشار عندك ؟...

ـ اجل .. وساغدق عليك المال الوفير والسعادة والرفاه ، وساحيطك بكل ماتحلم به عين ويتمناه قلب ، فانت على مايبدو اوسع مني ثقافة وادق ملاحظة وابعد نظرا .

ـ يصعب علي ان اعمل لديك مستشارا .

ـ وما هو وجه هذه الصعوبة ؟..

ـ انك تتخذ مكاتبك في غرف تشبه الجحور ، بينما انا لااستطيع العمل والتفكير الا في مثل هذا الجو النقي النظيف ، فاي بناء يمكن ان يجمعني معك ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فانا استعمل اقلاما ضخمة في التوقيع وفي كتابة الرسائل ليست اقل حجما من اية شجرة من هذه الاشجار ، كما ان الورق عندي جسيم ، والدفاتر لدي اطول من حجمك بمرات ، ويؤسفني ان اقول لك بان محفظة اوراقي تتسع لك ولمعاونيك ولحفنة اخرى من مرافقيك .. لهذا ترى ان كل شيء بيني وبينك مختلف .

ـ هذا صحيح .. ولكني آمر من اجلك باشادة بناء يناطح السحاب ويعانق الرياح ، كما آمر من اجلك بصنع اقلام بحجم الاشجار ودفاتر بحجم الابنية .. وفراش بطول الشارع ومقاعد بحجم الحافلات ... اجل .. سابني لك قصرا فخما ، وساجعله قبلة انظار العالم ، وساحيطك بكل اسباب السعادة .

ـ انني اخاف هذه السعادة ، فما من باب عندكم الا وله قفل ومزلاج ، وانا اخاف ان تمنحني حرية صغيرة ، بحجم القصر الذي ستبنيه ، ثم توصد باب ذلك القصر دوني ، فتحرمني الحرية الكبيرة ، وعند ذلك اغدو لديك كعصفور بين قضبان القفص لايمتع جناحيه الا بالحرية الصغيرة.

ـ يالحرصك ايها العنيد !.. اذن اجعلك قائدا عاما للجيش والقوات المسلحة .

ـ لماذا ؟.. أمن اجل ان تأمرني ان اطيح بالاحرار وافتك بأعناق الابرياء ؟.. لا .. .لا ! انني لااوافق .

ـ انني اقدم اليك الذهب والفضة .. ارجوك .

ـ انني لااحتاج اليها في عالمي ..

ـ اذن ماذا تروم من هذه المدينة . هيا ارحل عنها ارجوك ..

ـ أتسال ماذا اروم من هذه المدينة .. حسنا ، فما دمت تريد ان تعرف ، فلا بأس في انا اخبرك بان رائحة الدماء التي سفكت قد جذبتني .. انني مخلوق لاامتلك الا حاستين ، حاسة السمع وحاسة الشم فالاولى تجذبني نحو السجون العميقة ، فانقاد الى صيحات المعذبين وصرخات المغلولين ، والثانية تجذبني نحو المجازر ، فانقاد الى البقع الحمراء المسفوحة واقف بجانب الارواح الصاعدة ، واخفف سلوى المتكولين ، ثم اعرج على المنكوبين الاصحاء واسكب في انوفهم رائحة الحرية واسعر في صدورهم لهب الانتقام .. ثم اغيب ..

وظهرت علائم الغضب على وجه الزعيم فقال بصوت تخنقه الرجفة :

ـ اذن فانت متآمر لا مباشر ..بخ . بخ

ظننتك هبة من السماء سعت الي لتساعدني في تصريف امور المدينة واذا بك ناكر متنكر

ـ هدىء روعك ايها الزعيم ..

ـ دع روعي يستعر .. واستعد لمنازلتي .. فان كنت شيئا اقوى من قوتي فاسحقني .. والا .. فسأجعل منك ايها الطفل اضحوكة العالم .. سأصنع منجنيقا لشنقك .. وسأعلقك من اقدامك بشاحنات « دياموند » واجرك في السهول والمستنقعات ، ثم سأقطع جسدك اربا اربا ، وابعث بلحمك الى الوحوش لتقتات من جبروتك ولتتغذى باعتدادك ايها الصنديد . ايها الصنم .. ايها الخرافة .. الا تدري اننا في قرن اندحرت فيه هذه الخزعبلات ، فلم يعد يظهر شيطان مثلك .. أو جني او قوى غيبية لا سلطان لاحد عليها .. اننا الان في عصر البارود ايها الغبي ..

وانفجر الصنم ضاحكا ، فدوى ضحكه كانه العاصفة وارتمى الزعيم مرة ثانية على الارض ، ولكنه زحف متراجعا .. بعد ان تحطم بيده ناقل الصوت . ثم هرب بسيارته المصفحة وهو فاقد الوعي .

شعر

من منشورات دار الاداب

الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
قصائد عربية	سليمان العيسى
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
عائدون	يوسف الخطيب

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

احس الشعب بخطورة الحالة ، ورأى انه من المفيد ان يدافع جميع ابنائه عن هذا الصنم الذي لم ينزل الاذى باحد ، خاصة وان محادثته مع الزعيم قد كشفت امورا غامضة عن الرعية .. فأيقنوا بان زعيمهم سيء النية وانه اذا مافضى على هذا الصنم فمعنى ذلك انه سينتصر بسهولة على كل المعارضين والمطالبين بالحرية . فما عتم الشعب حتى قرر حمل السلاح والدفاع عن الصنم الحي .

وفي منتصف الليل ، امر الزعيم باخلاء الساحة الكبرى من الناس . ولكن احدا ما لم ينفذ امره . عند ذلك نشبت معركة حامية تراجع على اثرها الشعب ولجأ الى ضواحي المدينة لتنظيم صفوفه واعادة الكرة .

ولما تبلغ الزعيم نبأ التمرد والمقاومة ، استشاط غضبا وعرف مدى الصلة التي تربط الصنم مع رعيته .. فأسرع باصدار الاوامر الى الكتائب المسلحة باطلاق النار . فلما فعلت ازداد دهش الزعيم اذ علم بان الرصاص لم ينفذ بالصنم .

وسرعان مااستبدل الزعيم هذه الكتائب بكتائب اخرى ، وامرها برمي الصنم بالقنابل اليدوية ففعل افراد الكتائب ماامروا به ، ولكن شظايا القنابل تطايرت بين ساقي العملاق وكأنها هباب ورق محروق تداعبه موجات الهواء .

شاهد علماء التشريح والانسجة هذه المحاولات ، فاشتد تعجبهم من صلابة انسجة الصنم ، واقترحوا ان تفجر القنابل في جهازه الهضمي ، لاحتمال ضعف الانسجة هناك . وتطوع احد الجنود للقيام بالمهمة .فتسلق جسد العملاق مستعينا بشعيرات جلده حتى بلغ فمه ، فسار على شفته العليا ثم قذف القنبلة في الفم . وانفجرت القنبلة في المعدة ، ولكنها لم تقض عليه ، بل ساعدت بقايا الطعام على الهضم .

ازداد حنق الزعيم وغضبه حينما عرف ان العملاق لم يمت ، ودبت في اوصاله مشاعر الخوف فيما اذا خاب في القضاء عليه . من اجل ذلك خابر الاركان وامر المدفعية الثقيلة بضرب الصنم .

توجهت المدفعية الثقيلة نحو الساحة الكبرى في سرعة زائدة . وعند الجانب الشرقي وقفت تصب نيرانها على العملاق ، ولكن العملاق ، شأنه في المحاولات السابقة ، تجاهل مايدور حوله . الا انه في الجانب الاخر من الساحة نشبت حرائق هددت المدينة بالزوال . فانصرفت فرق الاطفاء الى محاصرة النيران ، ولكن النيران التهمت وزارة الدفاع بالذات وكأنها قطعة ورق تعرضت الى لسن اللهيب .

وفي صبيحة اليوم التالي ، جاءت الزعيم مخابرة لاسلكية.من وزير الدفاع ، يدعوه الى منزله لوضع خطة جديدة . وذهب الزعيم الى منزل وزير الدفاع على جناح السرعة . وهناك قررا ان تقوم اسلحة المدرعات بالهجوم على ساقي الصنم ثم يلي ذلك انقضاض طائرات الفانتوم من الجو لقصف ظهره .

واعجبت الخطة الزعيم ، فتحركت الاليات رامية تحطيم ساقي العملاق ولكن العملاق لم يتجاهل هذه المرة مايدور حوله . فلما سمع هدير الدبابات داس احداها بقدمه فسحقها وجعلها في مثل دبابة طفل مصنوعة من التنك . عندئذ ارتدت باقي الدبابات على اعقابها مذعورة .. واختفت ..

وحان الوقت لقصف الطائرات ، فحامت حول الصنم في الجو ، ولكنها لم ترهبه ، فقد بدت له وكأنها مجموعة ذباب لاقيمة لها . ورأى ان افضل طريقة لصدها هو بعث الاضطراب في الجو الهوائي . فاخذ ينفخ في الهواء حتى اضطربت التيارات الهوائية وحدثت الارتفاعات والانخفاضات ، واخذت الطائرات تتعثر في خطوط سيرها . واعلن الربابنة ان جوا غريبا يحول دون الوصول الى الصنم ، وان الطائرات تكاد تلقى مصرعها نتيجة للعواصف الشديدة . عندئذ امر قائد السرب الطائرات بالعودة ، ففعلت دون مكابرة .

اما في الليلة التي تلت هذه المحاولة الجريئة . فقد سكن كل شيء خصوصا بعد ان افلس الزعيم والجيش من كل الوسائل .

وحتى منتصف تلك الليلة ، لم يستطع الوزراء ولا القواد ولا الامناء العامون ان يجدوا مخرجا . واخيرا اقترب رئيس الاركان باستخدام القنابل الذرية .

وافق الزعيم على هذه الفكرة ، كآخر اجراء يمكن ان يتخذه بحق ذلك العفريت الذي جاء ليبشر الشعب ضده . فخابر مندوب دولة صديقة وطلب مساعدتها في القضاء على هذا العدو.وبسط الامر للمندوب وامره بايفاد الخبراء لتفجير قنبلة ذرية بين ساقي العملاق . واجابه مندوب الدولة الصديقة الى طلبه بالموافقة وشربوا وقتئذ نخب الصداقة.

في الوقت الذي عرف فيه الشعب بالمؤامرة الكبرى ضد الصنم الحي كانت الاستعدادات قد اتخذت لضرب الصنم ، فهب الناس ودخلوا المدينة من جميع جهاتها وحاصروا قوات الجيش واحتدمت المعركة .

واستمر الظلام .. واستمر خلاله النضال الى ان تسللت خيوط الفجر ، فجاء النور ، واخذ يطارد جحافل الظلام التي بدت وكأنها بقايا لصوص تتوارى .

ولما اشرقت الشمس ، لم يجد الناس اثرا للصنم الحي ، بل شاهدوا مكانه شجرة باسقة وارفة امتدت اغصانها حتى ظللت الساحة الكبرى ، وارتفع ساقها حتى تجاوز اعمدة الهاتف والكهرباء . اما قمتها فقد كانت تتجاوز اعلى الابنية .. انها شجرة الحرية .

حلب — عبد الرحمن البيك

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في أزمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش
نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي